

الجهاد أرض العلم والعمل

كتب ورتب من أرض الشام

إخوانكم في
الجهاد

حفظه الله



الجِهاد

أرضُ العلمِ والعملِ

كتبه ورتبه

أبو عمر أسامة

-حفظه الله-



غرة شهر صفر لعام ١٤٣٥ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

دليل المحتويات

١	مقدمة
١	باب فضل العلم
٣	باب الدعوة إلى العلم والعمل به
٦	باب من أراد العلم فعليه بأرض الجهاد
٨	باب نصائح لطالب العلم
٨	أولاً: الإخلاص:.....
٩	ثانياً: الحذر من إتيان طالب العلم أبواب السلاطين والأمراء:.....
٩	ثالثاً: عدم النظر إلى العلم بعين واحدة:.....
٩	رابعاً: تكميل خلق طالب العلم:.....
١٠	خامساً: بذل النفس في سبيل الدعوة إلى الله:.....
١٠	سادساً: عدم كتمان العلم:.....
١١	باب الحذر من التكلم في الدين بغير علم
١٢	حكم من تكلم بغير علم:.....
١٣	خاتمة

بسم الله، والصلاة والسلام على خير الأنام ورافع راية الإسلام ومنذر أهل الآثام، وعلى آله وصحبه الأعلام، ثم أما بعد:

مقدمة

إن ما خلقنا الله له العبادة، والعبادة لا تكون إلا على علم وهدى ونور، فالعلم هو طريق الوصول لهذه العبادة، وبدونه يكون المرء من الضالين الذين حُرِموا الهداية إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وقال الله تعالى أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قال ابن تيمية رحمه الله: "من لم تشرق عليه شمس الرسالة فهو في ظلمات الجهل" اهـ . والعلم له مكانة عظيمة عند الله تعالى فقد بدأ به ثم ثنى بالعمل كما في قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، ونحن أمة الكتاب الهادي والسيف الناصر، وسيف يشرع على غير هدى من الكتاب هو سيف كفر أو بدعة أو بغي، وقد روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة). [وقد ضعفه الحفاظ وحسنه بعض المتأخرين] والعلم هو أساس كل شيء ولذلك فضل الله العلم وأهله، وهو نبراس حضارة الأمم وارتقائها، وكما كان العلم لا ينال إلا ببذل النفس؛ فإنه في سبيل نشره تبذل النفس؛ فالجهاد والقتال في سبيل الله فيه دعوة إلى الإسلام، وحرب على كل من يقف في طريق الدعوة، بل إنما شرع الجهاد من أجل حمل الدعوة الإسلامية وإنقاذ الشعوب من الشقاء والظلمات إلى الهدى والنور، كما دلت على ذلك الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة.

فكانت هذه رسالة حُبَّرتها وجمعتها في فضل العلم وطلبه، وفي فضل طلبه في أرض الجهاد وكون ذلك من أسباب فتوحات الفهم، فنسأل الله سبحانه وتعالى السداد في الرأي والإخلاص في القول والعمل وأن ينفعني بها والمسلمين أجمعين.

باب فضل العلم

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنََّّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وقال عز من قائل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه؛ وهو توحيده... وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه... [ثم ذكر منها] استشهادهم دون غيرهم من البشر، واستشهادهم على أجل مشهود عليه، اقتران شهادتهم بشهادته جل وعلا، واقتران شهادتهم أيضاً بشهادة الملائكة"، اه مختصراً.

وقال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وقال ابن القيم رحمه الله: "وكفى بهذا شرفاً للعلم؛ أن أمر نبيّه أن يسأله المزيد منه"، اه .

وقد قيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم، وقال بعض العلماء: العلم صلاة السر وعبادة القلب.

العلم

والعلم لغة: هو المعرفة، وهو نقيض الجهل.

أما شرعاً: فهو معرفة ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى.

قال سيد قطب رحمه الله : "فالعلم الحق هو المعرفة، هو إدراك الحق، هو تفتح البصيرة، هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود، وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس، وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة، هذا هو القنوت لله وحساسية القلب، واستشعار الحذر من الآخرة، والتطلع إلى رحمة الله وفضله، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة، هذا هو الطريق، ومن ثم يدرك اللب ويعرف وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة، فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة والمشاهدات الظاهرة، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء"، اهـ.

وقد صح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين). [متفق عليه]

وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيراً؛ فإنه يصطفيه لحمل هذه الأمانة من الفقه في الدين، ويكون من ورثة الأنبياء، ومن الدعاة إلى دينه، ومن أهل الله وخاصته، وإنها كرامة عظيمة ونعمة من الله لعبده أن يوفقه إلى ذلك، ودليل على مرضاة الله وتوفيقه، فقد جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه

قال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم) ، ثم قال: (إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير) . [رواه الترمذي]

فإن العلم نورٌ وضياء، وإنما يخشى الله من عباده العلماء، وإن الله سبحانه وتعالى لا يعطي أسرار هذا الدين وأنواره إلا لمن جاء بقلب خاشعٍ تقيٍ نقي.

وصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة). [رواه مسلم]

وجاء في الحديث: (من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع). [رواه الترمذي وحسنه الألباني]

وأفضل العلوم هو علم التوحيد والعقيدة،

وأول واجب على العبيد* معرفة الرحمن بالتوحيد

قال الله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

قال الإمام ابن كثير: "هذا أول واجب على المكلفين؛ أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، اهـ .

قال الإمام ابن رجب الحنبلي: "فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام؛ أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره، وهكذا كان حال أصحاب النبي عليه السلام والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة"، اهـ .

وقال الله -جل وعلا- لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

وبوّب الإمام البخاري باب العلم قبل العمل.

باب الدعوة إلى العلم والعمل به

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال أحكم الحاكمين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (بلغوا عني ولو آية).

وقال -صلى الله عليه وسلم- لعلي رضي الله عنه: (لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لكم من حمر النعم). [متفق عليه]

والمعيار الذي تكون به الدعوة دعوةً إلى الله سبحانه وتعالى؛ أن تكون بإخلاص لله وابتغاء مرضاته ورضوانه، لا يبتغي الداعية من ذلك عرضاً من الحياة الدنيا أو مدحاً أو ثناءً من الناس، فقد جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) [أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وابن حبان وصححه بعض المتأخرين كالنووي والعراقي والمنذري والألباني وضعفه بعض الحفاظ]

ثم أن تكون على بصيرة؛ أي على علم وهدى، وهكذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ كانوا أئمةً في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، بإخلاص وعلى بصيرة، حتى دخل من دخل في دين الله أفواجاً. والناظر في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يعلم فضل الدعوة إلى الله وضرورة القيام عليها، وأنها أمانة عظيمة وميثاق أخذ الله -سبحانه وتعالى- على صاحب العلم، إلا أن الدعوة إلى الله ليست مجرد بلاغ على الداعي يؤديه إلى الناس فتبراً ذمته؛ بل الداعي الموفق هو من يكون هدفه إنقاذ الناس من النار، ولا يكون غايته أن يتعلم العلم ويعرف الأحكام ليقوعها على الناس! فنحن أمة -كما قال ابن تيمية رحمه الله- علمنا الحق، وأمرنا بتبليغه، وأن نرحم الخلق؛ لذا فإن الدعوة إلى الله على بصيرة تتغير وتتغير في أولوياتها وأساليبها باختلاف أحوال الناس وما يحيط بهم حتى يتحقق منها مراد الله؛ وهو استجابة الناس لأمرهم وإقبالهم عليه توحيداً وطاعة.

يستعين في ذلك بالله، مستقبلاً هذه المهمة العظيمة، ومستدبراً الراحة والنوم؛ فإن زمنهما قد مضى منذ أن حمل صاحب العلم العلم، وما عاد بعد اليوم إلا الجهاد الطويل الشاق والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والصبر على الأذى في هذا الطريق. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره هذه الآية:

”الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب، وعلمه العلم أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه ويوضح الحق من الباطل، فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله؛ ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفاً من إثم الكتمان، وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبئوا بها، فكتموا الحق وأظهروا الباطل، تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً بحقوقه تعالى وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرئاسات والأموال الحقيمة من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخسّ العوض”، اهـ.

والدعوة إلى الله من أشرف مقامات العبودية وهي أفضل من رمي السهام إلى نحور العدو؛ فإن رمي السهام يقوم به العامة والخاصة وأما الدعوة إلى الله فلا يقوم بها إلا ورثة الأنبياء كما ذكر بن القيم رحمه الله في جلاء الأفهام،

وقال ابن القيم رحمه الله: ”أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب”، اهـ.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: ”حدثنا الذين يُقرئوننا القرآن، أنهم كانوا لا يتجاوزن العشر آيات، حتى يعملوا ويعرفوا ما فيه من علم، فيتعلموا العلم والعمل جميعاً”، اهـ مختصراً بمعناه.

فلا ينفع العلمُ صاحبه إلا بالعمل، والعلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر، وقد استدل الإمام سفيان بن عيينة بقول الله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ على فضل العلم حيث قال: (ألم تسمع أنه بدأ به فقال: اعلم ثم أمره بالعمل ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾)، اهـ.

وقال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: ”اطلبوا العلم للعمل فإن أكثر الناس قد خلطوا حتى صار علمهم كالجبال وأعمالهم كالدرّ”، اهـ.

وقال حبيب بن عبيد الرحي: ”تعلموا العلم واعقلوه وانتفعوا به ولا تعلّموه لتتجملوا به، إنه يوشك إن طال بك العمر أن يُتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه”، اهـ.

فالعالم إذا خالف عمله علمه، وكذب فعله قوله؛ كان ممقوتاً في الأرض والسماء، قال مالك بن دينار: "إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه وإذا تعلم لغير العمل زاده فجوراً وتكبّراً واحتقاراً للعامّة"، اهـ.

باب من أراد العلم فعليه بأرض الجهاد

(نحن أمة العلم والجهاد)

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولهذا كان الجهاد؛ موجبا للهداية، التي هي محيطة بأبواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، فجعل لمن جاهد فيه؛ هداية جميع سبله تعالى، ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: "إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم، لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾"، اهـ، [مجموع الفتاوى ٤٤٢/٢٨].

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث الطائفة المنصورة المتفق على أصله: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) واللفظ لمسلم، وبوّب له البخاري في الصحيح: باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون) .. قال البخاري: (وهم أهل العلم)، اهـ،

وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: "إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور"، اهـ، فالله -سبحانه وتعالى- يفتح على المجاهدين من طلاب العلم من بركات العلم ودقائق الفهم، وهو -سبحانه- لا يعطي أسرار هذا الدين إلا لمن عمل به وعاشه واقعاً في حياته كأن آيات الله سبحانه تنزلت عليه، ويعيشها واقعاً حقيقياً،

وكثير من الناس يظنون العلم لا يمكن أن يطلب في أرض الجهاد، وهذا مغاير للواقع، ومغاير كذلك لسنة الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا يتعلمون من النبي -صلى الله عليه وسلم- أحكام الإسلام عندما يخرجون معه في الغزوات، فأرض الجهاد هي أرض العلم والعمل، وفيها تخرج علماء من علماء الأمة وقادتها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

قال سيد قطب رحمه الله: "ولقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية، وتحديد الفرقة التي تتفقه في الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم. والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة -على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون -لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقيين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة.

والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه -وله أصل من تأويل ابن عباس -رضي الله عنهما -ومن تفسير الحسن البصري، واختيار ابن جرير، وقول لابن كثير -أن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسرارهِ ومعانيهِ، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاتهِ العملية في أثناء الحركة به.

أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة، هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين! ولكن هذا وهم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين. إن الحركة هي قوام هذا الدين، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس، وتغليبه على الجاهلية، بالحركة العملية،

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه، مهما تفرغوا لدراسته في الكتب - دراسة باردة! - وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس، ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق!

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة، والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاماً فقهية "يجددون" بها الفقه الإسلامي أو "يطورونه" -كما يقول المستشرقون من الصليبيين! - وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده، بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت؛ هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين!، اهـ .

وهذه حقيقة فإن المجاهد الذي يأتي إلى ساحات الجهاد جاداً ويوفّق إلى من يأخذ بيده في مدارج الطلب؛ يتفقه في دين الله سبحانه وتعالى ويعيشه واقعاً في حياته، ومن عاش معتزك الجهاد يعلم حقيقة هذا الأمر ويشهد ما لا يشهده غيره من القاعدين، ولا يستوي من تصور حقائق الوقائع التي تنتظم أحكامها في فقه الجهاد بالوصف، بمن تصورها بمعانيته ومعاناته وعاش دقائقها وأحاط بظروفها، ولا يستوي من درس العقيدة وعرف أهمية تحكيم الشريعة والولاء والبراء، بمن درسها وطبق أحكامها وجاهد من أجلها، وهذا عين ما عشته واقعاً في ساحة الشام، فنسأل الله التوفيق والهداية.

باب نصائح لطالب العلم

أولاً: الإخلاص:

فينبغي لطالب العلم أن يخلص النية لله تعالى في علمه ثم العمل والدعوة إلى الله والصبر على الأذى في ذلك؛ فإن الإخلاص شرط لصحة العبادة قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، ولحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات"، وليحذر من طلب العلم لعرض من الدنيا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

فالإخلاص للمعبود -سبحانه- بالعلم والعمل ولا يكون ذلك إلا بمتابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلا بُد من شَرْطِي الإخلاص والمتابعة.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار). [رواه الترمذي وابن ماجه]

وعن جابر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تجتروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار). [أخرجه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة). [أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم]

وعن كعب بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **(من طلب العلم ليُجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار).** [رواه الترمذي]

فتأمل هذه الأحاديث؛ يتبين لك أن شرط العلم والتعلم ثقيل.

ثانياً: الحذر من إتيان طالب العلم أبواب السلاطين والأمراء:

قال كعب الأحبار: "يوشك أن تَرَوْا جُهل الناس يتباهون بالعلم ويتغايرون على التقدم به عند الأمراء كما يتغايرون النساء على الرجال فذلك حظهم من علمهم"، اهـ

وقال سفيان الثوري: "إذا رأيتم العالم يلوذ بباب السلاطين فاعلموا أنه لص، وإذا رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء فاعلموا أنه مُرَاءٍ"، اهـ

وقال الفضيل بن عياض لسفيان بن عيينة لما أخذ من البرامكة: "كنتم معاشر العلماء سُرجاً للبلاد يُستضاء بكم فصرتُم ظُلْمة، وكنتم نجوماً يُهْتدى بكم فصرتُم حَيْرة، أما يستحي أحدكم من الله إذا أتى هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم وهو يعلم من أين أخذه ثم يُسند ظهره إلى محرابه ويقول: حدثني فلان عن فلان، فطأطأ سفيان رأسه وقال: نستغفر الله ونتوب إليه"، اهـ

وقال جعفر بن محمد: "الفقهاء أَمْناء الرسل مالم يأتوا أبواب السلاطين"، اهـ

وكتب أحمد بن حنبل إلى سعيد بن يعقوب: "أما بعد: فإن الدنيا داء والسلطان داء والعالم طبيب، فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره، والسلام عليك"، اهـ

ثالثاً: عدم النظر إلى العلم بعين واحدة:

على طالب العلم ألا ينظر إلى العلم بعين واحدة؛ تُبَصِّرُ شيئاً وتعمى عن أشياء، فإنه ينبغي عليه أن ينظر إلى أقوال العلماء كلها ويعرف مآخذها وسائغها من شاذها، ويدرك كل ما يستطيع إدراكه في المسألة من اجتهادات وأدلة فيها حتى لا يبخرس قول مخالفه فيها حقّه من الاعتبار، وحتى لا يقع في ذميم التعصب، وفي هذا الباب رسالة رفع الملام عن الأئمة الأعلام يحسن بطالب العلم النظر فيها ليوسع مداركه ويبعد أفق نظره.

رابعاً: تكميل خلق طالب العلم:

على طالب العلم تعلم الأدب؛ فإنه تسعة أعشار العلم، وأن يتأدب مع العلماء ويحفظ لهم قدرهم،

وعليه أن يتواضع لله -عز وجل- فمن تواضع له رفعه،

وعليه أن يصبر على الناس وعلى أذاهم، وأن يكون ذا حلم وأناة، ويتأكد هذا على طالب العلم المجاهد، وفي الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأشج عبد القيس: **(إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)**. [رواه مسلم]

وعليه أن يعرف قدر نفسه لا بخساً لها ولا تعظيماً؛ فلا ينبغي له أن يقعد في بيته ومكتبته إذا سئل أجاب، وإذا تُرك ترك؛ فما هذا منهج أصحاب الدعوة، بل يجب عليه أن يبذل علمه ويكون داعياً إلى الله، ومعلماً ومرتبياً؛ بحسب ما حصل من العلم، فلا يتصدّر لما لم يتأهل له، ولا يتأخر عما تأهل له.

خامساً: بذل النفس في سبيل الدعوة إلى الله:

على طالب العلم أن يبذل نفسه في سبيل الله ويسطر دعوته بدمائه، ولا ينبغي لطالب العلم أن يتعلم الفقه في الدين ثم يعفي نفسه من القتال والجهاد في سبيل الله بحجة حفظ العلم وتفقيه الناس في دينهم، بل يجب عليه أن يقود الناس في المعارك ويحرض المؤمنين أسوة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- سيد العلماء والفقهاء والمجاهدين، وقد كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حمي الوطيس يحتمون برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن غلام الأخدود الذي صدع بالحق الذي تعلمه من الراهب الذي سكت عنه خوفاً من المفسدة، هو الذي درأ المفسدة وجلب المصلحة الكبرى، فأين علماء الأمة من هذا الغلام الذي ضحى بنفسه ليحيا الدين، وإن أحوج ما تحتاج إليه الأمة؛ العلماء المجاهدون، ونحن المجاهدين نتطلع إلى اليوم الذي ننظر فيه لأمثال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره من العلماء الذين جمعوا العلم والعمل والجهاد، فما أكثر ثغور الجهاد، وما أقل علماءها! .

سادساً: عدم كتمان العلم:

ينبغي لطالب العلم ألا يكتُم العلم الذي مَنَّ الله عليه به، جاء في حديث أبي هريرة: **(من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)**.

ويقول جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً، ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾" إلى آخره.

ويقول الشيخ حافظ الحكيم في ميميته الفريدة الشهيرة:

والكتم للعلم فاحذره إن كاتمته * في لعنة الله والأقوام كلهم
ومن عقوبته أن في المعاد له * من الجحيم لجاماً ليس كاللجم
وصائن العلم عمن ليس يحمله * ما ذا بكتمان بل صون فلا تلم
وإنما الكتم منع العلم طالبه * من مستحق له فافهم ولا تهم
وليس من كتمان العلم التروي في الفتيا والتأخر عما لم يتأهل له طالب العلم، وهذا ما عقدنا
له الباب الآتي.

باب الحذر من التكلم في الدين بغير علم

قال الله -جل وعلا-: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال الإمام ابن القيم في هذه الآية: "رتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش،
ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو
الشرك به سبحانه، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا
يعم القول عليه -سبحانه- بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه"، اهـ

وفي الصحيح مرفوعاً: (من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار). [رواه البخاري]

وروي في الحديث: (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار) ، قال الإمام أحمد: "يفتي بما لم
يسمع"، اهـ وقال لبعض أصحابه: "إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام"، اهـ

وقال ابن القيم: "الجرأة على الفتيا تكون من قلة العلم ومن غزارته وسعته، فإذا قل علمه؛
أفتى عن كل ما يُسأل عنه بغير علم، وإذا اتسع علمه اتسعت فتياه"، اهـ

وقال رحمه الله تعالى: "كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود
كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه، بذل اجتهاده في معرفة
حكمها من الكتاب والسنة، أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى...

قال ابن أبي ليلى: "أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا؛ حتى ترجع إلى الأول"، اهـ
باختصار يسير،

فلا تستحي أن تقول: لا أعلم، فيما لا تعلم. قال عبد الله بن الإمام أحمد: "كنت أسمع أبي كثيراً يُسأل عن المسائل، فيقول: لا أدري. ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف، وكثيراً ما كان يقول: سل غيري. فإن قيل له: من نسأل؟ قال: سلوا العلماء، ولا يكاد يسمي رجلاً بعينه"، اهـ

وقد سُئل الإمام مالك عن عشرات المسائل، فأجاب عن بعضها، وقال في الباقي: لا أعلم. فتأمل يا طالب العلم كلام الأئمة في ذلك، واليوم قد ابتليت الأمة بصغار من طلبة العلم إذا سُئل أحدهم عن مسألة تراه سريعاً في الإجابة والفتيا ولا يتردد فيها، ولا تمر به قضية من الكبار إلا وكان له فيها رأي ومقال، يظنون الاجتهاد يسيراً أو ينال مرتبته كل أحد بزمن يسير، وأين هؤلاء من قول الإمام مالك: "ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك"، اهـ، فلا يجوز لطالب العلم أن يتصدر للفتوى في صغار المسائل وكبارها إلا وقد شهد له العلماء العارفون به أنه أهل لشيء من ذلك، فالله الله يا معشر طلبة العلم في الحذر من التسرع في الفتوى والتكلم في دين الله سبحانه وتعالى بغير علم راسخ. روى أيوب عن أبي ابن مليك قال: سُئل أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عن آية، فقال: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، وأين أذهب، وكيف أصنع، إذا أنا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله بها؟

وقال ابن سيرين: لأن يموت الرجل جاهلاً خيراً له من أن يقول ما لا يعلم.

وقال أبو الحصين الأسدي: إن أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر.

وصح عن ابن مسعود وابن عباس: من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه؛ فهو مجنون،

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا يُنكر فضله، ولا يُجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟"، اهـ، فهو منصب شريف وجليل وعظيم؛ شرف لمن تأهل له، وجليل يجب إدراك عظمته والحذر من التسور عليه، وصاحبه مسؤول عما يقوله فيه، ولذلك كان الله - عز وجل يفتي بنفسه في بعض المسائل، كقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، فأفتى - عز وجل - بنفسه ونسب هذا الفعل لنفسه المقدسة الشريفة.

حكم من تكلم بغير علم:

أما من تكلم بغير علم فهو آثم حتى لو أصاب؛ فإصابته عن طريق الصدفة والموافقة، وليست بمقتضى الطريقة الشرعية، ولذلك فهو آثم في الحالين كما روي في الحديث: **(من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب)** [رواه الترمذي وقال عنه غريب]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(من أفتي بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه).**

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاصٍ، ومن أقره من ولادة الأمور على ذلك فهو آثم أيضاً"، اهـ

خاتمة

وأسأل الله العظيم أن ينفع بهذه الكلمات، وأن يجعل لها من القلوب موضعاً، وأن يجعلها محرضة على طلب العلم والعمل به والنفير للجهاد في سبيل الله، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

والحمد لله رب العالمين.

